ذكريات شيرلوك هولمز (٥)

اختفاء الليدي فرانسيس كارفاكس

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «سُتراند» الشهرية في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩١١

سألني شيرلوك هولمز وهو يطيل النظر إلى حذائي: ولكن لماذا اخترت التُركى؟

في تلك اللحظة كنت مستلقياً على كرسي خشبي مادّاً رِجلَيّ باسترخاء، وقد لفت حذائي انتباه هولمز اليقظ. أجبته ببعض الدهشة: بل إنه إنكليزي الصنع، وقد اشتريته من متجر لاتيمر في شارع أكسفورد.

ابتسم هولمز وقد عيل صبره، ثم قال: الحمّام، الحمّام! لماذا تذهب إلى الحمام التركي المكلف بدلاً من حمّام البيت المجّاني اللطيف.

- لأنني بدأت أشعر مؤخراً بأعراض الكِبَر وآلام المفاصل، والحمّام التركي علاج مناسب في هذه الحالة. إنه يمنح البدن نظافة شديدة ويوفر للنفس بداية جديدة.

ثم أضفت قائلاً: بالمناسبة يا هولمز، لا شك أن الصلة بين حذائي والحمّام التركي واضحة تماماً في ذهنك المنطقي، أما أنا فسوف أكون ممتناً لك لو قدمت لى تفسيرها.

قال هولمز وقد التمع في عينيه بريق ماكر: إن ترتيب الأمور في تسلسل منطقي ليس مسألة صعبة يا واطسون، وهو ينتمي إلى المستوى الأولي من الاستنتاج الذي أستطيع تفسيره لك بمثال، كما لو سألتك: مَن ركب معك في العربة وأنت

راجع إلى البيت هذا الصباح؟

قلت ببعض الحدّة: لا أفهم كيف يساعد مثال جديد في تفسير ما أريد معرفته.

- رائع، إنه اعتراض وجيه ومنطقي يا واطسون. دعني أتذكر، ما هي النقاط المطلوب توضيحها؟ لنبدأ بتفسير آخِرها أولاً: العربة. يمكنك ملاحظة بعض قطرات الماء المتناثر على كتف معطفك وكمّه من الجهة اليسرى، ولو أنك جلست في وسط مقعد العربة لما أصابك الماء المتناثر على الأرجح، وحتى لو طال ملابسك لكان الجانبان متماثلين. وإذن من الواضح أنك جلست على الطرف، وبنفس الوضوح يُظهر هذا الاستنتاج وجود مرافق لك في العربة.

- هذا واضح جداً.
- واضح وبسيط للغاية، أليس كذلك؟
- بلي، ولكن ماذا عن الحذاء والحمّام؟
- العلاقة بينهما على نفس القدر من البساطة. إن من عادتك أن تعقد رباط حذائك بشكل معين، وأراه الآن معقوداً بربطة مزدوجة متقنة لا تشبه طريقتك المعتادة في عَقْدِه، وهذا يعني أنك خلعته في مكان ما حيث أعاد ربطه شخصٌ متمرّس. من معرفتي بعاداتك فكرت بالاحتمالات الممكنة، فانحصر ذهني في اثنين: إما أن يكون الإسكاف أو خادم الحمّام. ومن غير المحتمل أن يكون الإسكاف هو المقصود لأن حذاءك

يكاد يكون جديداً، فمَن يبقى إذن؟ خادم الحمام. منتهى البساطة، أليس كذلك؟ ولكن برغم ذلك كله أحسب أنك لم تعد بحاجة إلى الحمام التركي.

- وكيف ذلك؟

- قلتَ إنك ذهبت إليه لأنه يوفر لك بداية متجددة، فاسمح لي أن أقترح عليك طريقة أخرى للتغيير. ما رأيك برحلة إلى لوزان يا عزيزي واطسون، في الدرجة الأولى وكل النفقات مدفوعة بسخاء؟

- رائع! ولكن لماذا؟

اضطجع هولمز في كرسيّه المريح وأخرج مفكرته من جيبه ثم قال: إن المرأة الوحيدة والعاطفية من أخطر أنواع البشر في العالم، فهي وإن كانت غيرَ مؤذية وغالباً ما تكون مفيدة للمجتمع إلا أنها المحرّض الأساسي للجريمة عند آخرين. إنها كثيرة الترحال ولا حيلة لها، ولديها ما يكفي من الإمكانيات لتنتقل من بلد إلى بلد ومن فندق إلى آخر، فهي دجاجة شاردة في عالم من الثعالب، وحين تؤكل لا يفتقدها أحد. من هذا الباب أخشى أن يكون مكروة ما قد أصاب الليدي فرانسيس كارْفاكس.

شعرت بالراحة عند انتقاله من الحديث العام إلى موضوع محدد.

نظر هولمز إلى مفكرته وأكمل قائلاً: إن الليدي فرانسيس

هي الفرد الوحيد الباقي من أسرة إيرل روفتون الراحل، وقد الت الممتلكات كلها إلى رجال العائلة، فلم يبق لها إلا موارد مالية محدودة، بالإضافة إلى بعض الجواهر الإسبانية الأثرية الرائعة من الفضة والألماس النادر. وقد كانت مُتعلقة بتلك الجواهر بولع، ولع شديد لدرجة أنها رفضت الاحتفاظ بها في خزنة المصرف وأصرت على أن تحملها معها في تنقلاتها وأسفارها المستمرة. إن الليدي فرانسيس مثيرة للعطف، فهي امرأة جميلة في منتصف العمر، ومع ذلك فقد أصبحت فهي امرأة جميلة في منتصف العمر، ومع ذلك فقد أصبحت أعوام.

- وماذا حدث لها؟

- آه، ماذا حدث للّيدي فرانسيس؟ هل هي حية أم ميتة؟ تلك هي مشكلتنا. إنها سيدة ذات عادات محددة، وكان من عاداتها الثابتة في الأعوام الأربعة الماضية أن ترسل كل أسبوعين خطاباً لمربيتها العجوز الآنسة دوبني، التي تقاعدت منذ وقت طويل وتعيش في كامبرويل. الآنسة دوبني هي التي استشارتني في هذه القضية، فقد مَرَّت خمسة أسابيع دون أن تصلها منها أية أخبار. كان الخطاب الأخير قد وصلها من فندق ناشيونال في لوزان، ويبدو أن الليدي فرانسيس غادرت الفندق دون أن تترك عنواناً، فشعرت العائلة بالقلق، وبما أنهم في غاية الثراء فلن يبخلوا علينا بالمال لو نجحنا في حل اللغز.

- هل الآنسة دوبني هي المصدر الوحيد للمعلومات؟

لابد أن للّيدي فرانسيس علاقة بآخرين؟

- بالطبع، ثمة جهة أخرى لا بدّ من العلاقة الوثيقة بها يا واطسون، وهي البنك. فالسيدات الوحيدات لا بدّ أن يحصلنَ على نفقات لمعيشتهن، ومن ثمّ فإن دفتر شيكاتهن يكون مصدراً مهماً للمعلومات. إنها تتعامل مع بنك سيلفيستر، وقد ألقيتُ نظرة على حسابها فوجدت أنها استخدمت الشيك قبل الأخير لدفع مصاريف إقامتها في لوزان. ولكنه كان بمبلغ كبير، وعلى الأرجح بقي في يدها بعض المال. وقد شحب شيك مصرفي واحد منذ ذلك الوقت.

- لمَن؟ وأين؟

- لصالح الآنسة ماري ديفاين، ولكن لا يوجد ما يدلّ على مكان كتابة الشيك، وقد صُرف من فرع كريدِت ليونيز في مونتبيلير منذ أقل من ثلاثة أسابيع، وكان المبلغ المسحوب خمسين جنيهاً.

- من هي الآنسة ماري ديفاين؟

- لقد عرفت ذلك أيضاً. إنها خادمة الليدي فرانسيس كارفاكس، وإن كنا لم نتمكن من معرفة سبب دفع شيك بهذا المبلغ الكبير لها. أعتقد أن تحرياتك ستوضح الأمر قريباً.

- تحرياتي؟!

- هذا هو سبب رحلة الاستشفاء إلى لوزان، فأنت تعرف أنني لا أستطيع مغادرة لندن بينما يعاني العجوز أبراهام من

ذلك الرعب الهائل على حياته. فلتذهب -إذن- يا عزيزي واطسون، ولو كان لمشورتي المتواضعة من القيمة ما يوازي تكلفة البرقية الباهظة فسأكون تحت أمرك ليلاً ونهاراً.

* * *

بعد يومين وجدت نفسي في فندق ناشيونال في لوزان، حيث تلقيت كل الاحترام من السيد موسر، المدير المشهور الذي أخبرني أن الليدي فرانسيس أقامت هناك عدة أسابيع وأن كل من قابلها أحبها. عرفت أيضاً أن عمرها لا يزيد عن الأربعين، وأنها ما زالت تتمتع بالملاحة وتَظهر عليها كل الآثار التي تدل على أنها كانت في صباها امرأة فاتنة.

لم يعرف السيد موسر شيئاً عن جواهر قيّمة معها، وإن كان الخدم قد لاحظوا أن الصندوق الثقيل في غرفة نوم السيدة كان دائماً محكم الإغلاق. وقد تمتعت الخادمة ماري ديفاين بشعبية مثل مخدومتها، وكانت مخطوبة لأحد العاملين في الفندق، ولم يكن الحصول على عنوانها صعباً. كانت تسكن في المنزل رقم ١١ بشارع تراجان في مونتبليه.

كتبت تلك التفاصيل كلها لهولمز بسرعة وإيجاز، وشعرت أنه هو نفسه لم يكن باستطاعته أن يجمع المعلومات بشكل أكثر براعة.

لم تَخْفَ عليّ إلا حقيقة واحدة، فإني لم أستطع معرفة سبب رحيل السيدة المفاجئ. كانت سعيدة في لوزان، وكانت

كل الدلائل تشير إلى أنها تنوي البقاء في جناحها المُترَف المُطل على البحيرة حتى نهاية الموسم، ومع ذلك فقد غادرت بعد إخطار مدته يوم واحد، مما تسبب في خسارتها إيجار أسبوع دون فائدة. وحدَه خطيب الخادمة، واسمه جول فيبارت، هو الذي استطاع أن يقدم لي فكرة عن السبب المُحتمَل لهذه الواقعة، فقد ربط رحيلها المُفاجئ بزيارة لرجل مُلتح طويل داكن البشرة. وقد علّق جول فيبارت على الخبر قائلاً بانفعال: إنه رجل همجي، همجي تماماً.

أقام الرجل في مكان ما بالمدينة، وقد شوهد وهو يتحدث مع السيدة في المتنزَّه المجاور للبحيرة، وبعد ذلك جاء لمقابلتها فرفضت رؤيته. وهو رجل إنكليزي ولكن اسمه غير معروف، وقد غادرت السيدة المكان بعد ذلك مباشرة. ظن جول فيبارت (وهو الأمر الذي تظنه خطيبته الخادمة أيضاً) أن تلك الزيارة كانت سبباً مباشراً للرحيل. أمر واحد رفض جول توضيحه، وهو السبب الذي تركت خطيبتُه ماري مخدومتَها من أجله. فإما أنه لم يعرف السبب أصلاً، أو أنه لم يرغب في مناقشة الأمر، ولو أنني أردت معرفة السبب فلا بدي من الذهاب إلى مونتبليه لمقابلة الخادمة نفسها.

* * *

وهكذا انتهى الفصل الأول من تحرياتي، أما الفصل الثاني فقد خصصته لمعرفة المكان الذي لجأت إليه الليدي فرانسيس كارفاكس عندما غادرت لوزان. أحيط هذا الأمر

بالتكتم، مما يؤكد فكرة أن رحيلها كان بقصد منع شخص ما من اقتفاء أثرها، وإلا فلماذا لم يُكتب على أمتعتها بوضوح أنها متجهة إلى بادن؟ لقد وصلت هي وأمتعتها إلى منتجع رينيش في بادن بطريق غير مباشر، عرفت هذه المعلومة من مدير المكتب المحلي لشركة كوك للسفريات. وهكذا ذهبت إلى بادن بعد أن أرسلت لهولمز تقريراً بما صنعته، وتلقيت منه الرد في برقية إطراء فكه إلى حد ما.

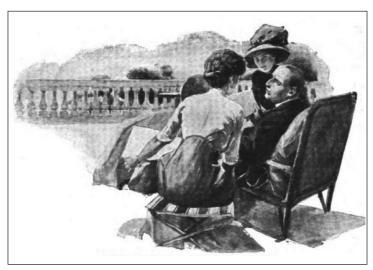
لم يكن تتبع الأثر في بادن صعباً، فقد أقامت الليدي فرانسيس في فندق إنْغلِشر لمدة أسبوعين. وهناك تعرفت إلى الدكتور شليسِنْغُر وزوجته، وهو مبشر من جنوب أمريكا. كانت السيدة فرانسيس تجد راحتها في اللجوء إلى الدين، وقد كانت لشخصية الدكتور شليسنغر الرائعة وكونه في طور النقاهة من مرض أصيب به خلال تأديته لواجبه الديني تأثير كبير عليها، فبذلت جهدها في مساعدة السيدة شليسنغر خلال فترة نقاهة زوجها من المرض. وكان الدكتور يقضى يومه -كما وصف لى مدير الفندق- على كرسى مريح في الشرفة، بينما تبقى السيدتان بالقرب منه للعناية به. وأخيراً عاد هو وزوجته إلى لندن بعد أن تحسنت صحته، وصاحبَتهما الليدي فرانسيس إلى هناك. كان هذا منذ ثلاثة أسابيع فقط، ولم يسمع المدير عنهم شيئاً منذ ذلك الحين. أما بالنسبة للخادمة ماري فقد غادرت قبلهم وهي تذرف دموعاً فيّاضة بعد أن أخبرت الخدم أنها تركت الخدمة إلى الأبد، وقد دفع الدكتور شليسنغر الفاتورة عنهم جميعاً قبل أن يغادر. قال صاحب الفندق في ختام كلامه: بالمناسبة، لم تكن أنت الصديق الوحيد الذي اهتم بالسؤال عن الليدي فرانسيس فيرفاكس، فمنذ أسبوع أو نحوه حضر إلينا رجل ليسأل عنها.

سألته قائلاً: هل ترك اسمه؟

- لا، لكنه إنكليزي، وإن كان من نوع غير معتاد.

قلت وأنا أحاول ربط الحقائق معاً كما يصنع صديقي الشهير: نوع همجي؟

- تماماً، لقد وصفته بشكل ممتاز. إنه رجل ضخم ملتح لفحته الشمس، ويوحي شكله بأن مكانه في حانة ريفيّة وليس في فندق راق! أعتقد أيضاً أنه من النوع القوي العنيف الذي قد يندم المرء على استثارته.



Alec Ball (1911)

رسم ألِكْ بول (١٩١١)

بدأ اللغز يتضح بالفعل وبدأت الأمور تنجلي بعد انحسار الضباب، فها هي سيدة طيبة تقيّة يلاحقها شخص شرير من مكان إلى آخر بلا هوادة، ويبدو أنها تخشاه، وإلا لما هربت من لوزان. وهو ما يزال يتبع خطاها، وقد يلحق بها عاجلاً أو آجلاً، هذا إن لم يكن قد لحق بها بالفعل. أهذا هو سر انقطاع أخبارها؟ ألم يتمكن الناس الطيبون الذين يرافقونها من حمايتها من عنفه أو ابتزازه لها؟ ما هو الهدف وما هي النيّة المبيتة وراء هذه المطاردة الطويلة؟ تلك مشكلة كان عليّ حلها.

كتبت لهولمز شارحاً له كيف توصلت إلى حقيقة الأمر بسرعة وثقة، وقد ردّ عليّ ببرقية يسأل فيها عن شكل أذن الدكتور شليسنغر اليسرى! إن طريقة هولمز في المزاح غريبة ومهينة في بعض الأحيان، ولذا فلم أهتم بدعابته ذات التوقيت السيّئ أي اهتمام. وفي الحقيقة كنت قد وصلت إلى مونتبليه متتبعاً الخادمة ماري حين وصلتني رسالته.

لم أجد صعوبة في العثور على الخادمة السابقة وفي معرفة كل ما كان بوسعها إخباري به. كانت إنسانة مخلصة ولم تترك مخدومتها إلا لأنها تأكدت أنها في أيد أمينة، ولأن زواجها القريب جعل الانفصال حتمياً على كل حال. وقد اعترفت بحزن بأن سيدتها أظهرت بعض الحدّة في معاملتها خلال فترة إقامتهما في بادن، حتى إنها استجوبتها مرة كما لو كانت تشكّ في أمانتها، وهذا ما جعل فراقها أسهل من المتوقع. وقد أعطتها الليدي فرانسيس خمسين جنيهاً هديّة بمناسبة زواجها. وكان رأي ماري مشابهاً لرأيي، حيث شعرت

بارتياب شديد حيال الغريب الذي دفع سيدتها إلى الهرب من لوزان، فقد رأته وهو يمسك بمعصم السيدة بعنف شديد في المتنزَّه العام بالقرب من البحيرة. كان رجلاً عنيفاً، وهي تعتقد أن خوف سيدتها منه هو ما دفعها لقبول مرافقة عائلة شليسنغر. ومع أن الليدي فرانسيس لم تتحدث إلى ماري بخصوص هذا الخوف، إلا أن عدداً من الإشارات الصغيرة أقنعت الخادمة بأن سيدتها عاشت في حالة من القلق المستمر.

كانت قد وصلت في كلامها إلى هذه النقطة عندما هبَّت فجأة عن كرسيّها وقد ظهرت على وجهها ملامح الخوف والدهشة، وصاحت قائلة: ما زال اللئيم يتتبع خطاها! ها هو



Frederic Dorr Steele (1911)

رسم فرِدْرِك دورْ ستيل (١٩١١)

الرجل الذي حدثتك عنه.

رأيت عبر نافذة غرفة الجلوس المفتوحة رجلاً ضخماً داكن البشرة ذا لحية خشنة سوداء، وكان يمشي ببطء في وسط الشارع وهو ينظر باهتمام إلى أرقام البيوت، ومن الواضح أنه كان يتبع أثر الخادمة مثلي تماماً.

أسرعت إلى الخارج بلا تفكير وسألته قائلاً: هل أنت إنكليزي؟

سألنى وعلى وجهه تقطيبة شريرة: وماذا لو كنت؟

- هل تسمح لى بسؤالك عن اسمك؟

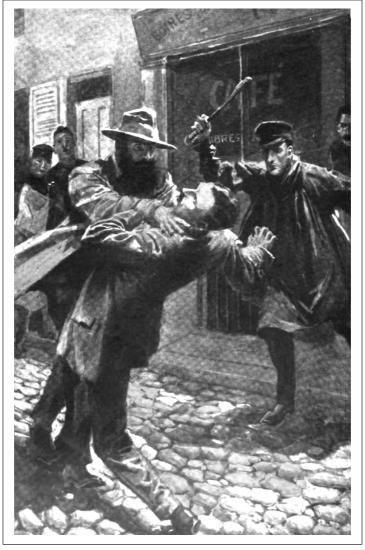
قال بحسم: لا، لا أسمح.

كان الموقف غريباً، ولكني رأيت أن الأسلوب المباشر هو الأمثل لمعرفة الحقيقة. سألته قائلاً: أين الليدي فرانسيس كارفاكس؟

حدق إليّ بدهشة، فقلت: ماذا فعلت بها؟ ولماذا كنت تتبعها؟ أنا أُصِرّ على أن تجيبني.

صرخ الرجل بغضب ووثب عليّ كالنمر! ومع أنني لست ضعيفاً إلا أن الرجل كان هائجاً وكانت قبضته حديدية. أطبق بيديه على عنقي حتى كدت أفقد وعيي، قبل أن يندفع من المقهى المُقابل عاملٌ فرنسي ملتح يرتدي سترة زرقاء وفي يده عصا، فضرب بها مهاجمي على ساعده ضربة قوية جعلته

يُفلت قبضته ويتردد للحظة وهو يشتعل غضباً ويفكر في إعادة الهجوم، لكنه تركني بعد أن أطلق زمجرة غاضبة.



Alec Ball (1911)

رسم ألِكْ بول (١٩١١)

استدرت لأشكر منقذي الذي كان يقف إلى جانبي على الطريق، فقال: حسناً يا واطسون، لقد أفسدت الأمور بدرجة كبيرة، لذلك أرى أن تعود معي إلى لندن في قطار الليل السريع.

* * *

بعد ذلك بساعة كان هولمز يجلس في حجرتي الخاصة بالفندق وهو يرتدي ملابسه المعتادة، وكان تفسيره لظهوره المفاجئ في الوقت المناسب في غاية البساطة، فحين وجد أن بإمكانه مغادرة لندن قرر أن يسبقني إلى المكان الذي قدّر أن أتجه إليه في رحلتي. وهكذا تنكر في زي عامل وجلس في المقهى منتظراً وصولي.

قال: يا له من تحقيق منظم بشكل فريد يا عزيزي واطسون! لا أستطيع أن أذكر أي هفوة ممكنة لم تقم بها، فالتأثير العام لما قمت به من عمل كان إطلاق الإنذار في كل مكان دون الوصول إلى نتيجة.

أجبته بمرارة: ربما لم تكن لتقوم بعمل أفضل.

قال: لا محل للشك ولا مجال لربما يا عزيزي، لقد قمتُ فعلاً بعمل أفضل. ها قد جاء السيد فيليب غرين، وهو نزيل معك في هذا الفندق، وقد يكون حديثنا معه نقطة بداية لتحقيق أكثر نجاحاً.

وصلت إلى غرفتنا بطاقة، ثم تبعها نفس الرجل الملتحي

العنيف الذي هاجمني في الشارع، وقد جفل حين رآني. تساءل قائلاً: ما هذا يا سيد هولمز؟ لقد وصلتني رسالتك فجئت، ولكن ما علاقة هذا الرجل بالموضوع؟

- إنه صديقي القديم وزميلي الدكتور واطسون، وهو يساعدنا في هذه القضية.

مدَّ الغريب يده الضخمة التي لفحتها الشمس مصافحاً وهو ينطق ببعض كلمات الاعتذار. قال: أتمنى أن لا أكون قد آذيتك، فعندما اتهمتني بإيذائها فقدت سيطرتي على نفسي، وفي الحقيقة فأنا أتصرف بشكل متهور هذه الأيام وأعصابي متوترة، وهذا الموقف فاق قدرتي على التحمل. ولكن أريد أن أعرف أولاً: كيف عرفت بوجودي يا سيد هولمز؟

- أنا على اتصال بالآنسة دوبني مربية الليدي فرانسيس.
 - العجوز سوزان دوبني؟ أتذكرها جيداً.
- وهي أيضاً تتذكرك، كان هذا في الأيام التي سبقت رحيلك إلى جنوب أفريقيا.
- آه، أرى أنك تعرف القصة كلها ولا حاجة لإخفاء شيء عنك. أقسم لك يا سيد هولمز بأن رجلاً في هذا العالم لم يحب امرأة أكثر صدقاً من حبي لفرانسيس، ولكني كنت شاباً طائشاً، أعرف ذلك، وإن لم أكن الأسوأ بين أقراني. أما هي فكان تفكيرها نقياً كالثلج، فلما سمعت بأفعالي المشينة قطعت علاقتها بي. ولكنها تحبني، هذا أعجب ما في الأمر!

لقد أحبتني بما يكفي لتظل بلا زواج طوال حياتها الطاهرة إكراماً لي وحدي. وعندما مرت الأعوام وجمعت ثروتي في باربيرتون فكرت أن بإمكاني السعي إليها ومحاولة استرضائها، وكنت أعرف أنها لم تتزوج، فوجدتها في لوزان وجربت كل الأساليب لاستمالتها، حتى بدأت تلين. ولما زرتها ثانية كانت قد غادرت المدينة، فتعقبت أثرها حتى بادن، وبعد ذلك ببعض الوقت سمعت أن خادمتها كانت هنا. أنا شخص ميّال إلى العنف وقد رجعت لتوّي من حياة خشنة، فلما تحدث إلى الدكتور واطسون بتلك الطريقة فقدت السيطرة على إلى الحظات. ولكن أخبرني بالله عليك، ماذا حل بالليدي فرانسيس؟

قال هولمز بوقار مميز: هذا ما نحاول اكتشافه. ما هو عنوانك في لندن يا سيد غرين؟

- يمكنهم العثور عليّ في فندق لانغهام حين تريدني.

- إذن فإنني أوصيك بالعودة إلى الفندق لو سمحت، والبقاء فيه حتى أستطيع الوصول إليك إذا احتجت إليك. لا أحب أن أقدم لك أي أمل زائف، ولكن تأكد تماماً أننا سنبذل غاية جهدنا لضمان سلامة الليدي فرانسيس. لا أستطيع أن أقول المزيد في الوقت الحاضر، وسوف أترك لك هذه البطاقة حتى تظل على اتصال بنا. والآن يا واطسون، اجمع أمتعتك بينما أرسل أنا برقية للسيدة هدسون في شارع بيكر، لكي تطبخ أفضل أطباقها لإطعام اثنين من المسافرين الجياع في

السابعة والنصف من صباح الغد.

* * *

عندما وصلنا إلى مسكننا في شارع بيكر وجدنا برقية في انتظارنا، وقد قرأها هولمز باهتمام ثم قدمها لي. كانت في البرقية ثلاثُ كلمات فحسب: "مشقوقة أو مشرومة"، وقد أرسلت من بادن.

سألته قائلاً: ما هذا؟

أجابني هولمز قائلاً: هذا كل شيء. ربما تتذكر سؤالي الذي بدا لك غير ذي صلة بالقضية، السؤال عن أُذن المبشر اليسرى، وهو سؤال لم تُجبنى عنه.

- كنت قد غادرت بادن في ذلك الوقت.

- نعم، ولهذا السبب أرسلت برقية لمدير فندق إنغلِشر، وها هو جوابه.

- وعلامَ يدل؟

- يدل يا عزيزي واطسون على أننا نتعامل مع رجل خطير وذكي بشكل استثنائي. إن المبشر المزعوم ليس سوى هولي بيترز، وهو واحد من أكثر الأشخاص الذين نشؤوا في أستراليا نذالة وانعداماً للضمير، وتخصصه الدقيق هو خداع السيدات الوحيدات عن طريق استغلال مشاعرهن الدينية. أما تلك التي تزعم أنها زوجته فإنها شريكته، وهي إنكليزية اسمها

فريزر. خطر اسمه على بالي بسبب طبيعة اللعبة التي قام بها، ثم تأكدَت شكوكي بسبب هذه العلامة المميزة، حيث قُضِمت أذنه في عراك بإحدى الحانات في أديلايد عام ١٨٨٩.

لقد وقعت هذه السيدة المسكينة في أيدي اثنين من الشياطين، ولن يتورعا عن القيام بأي شيء يا واطسون. ربما تكون ميتة الآن، هذا الافتراض محتمل جداً، ولو كانت حية فقد تكون حبيسة في مكان ما، ممّا حال بينها وبين الكتابة للآنسة دوبني أو أيًّ من أصدقائها الآخرين. من الممكن أيضاً أن لا تكون قد وصلت إلى لندن على الإطلاق أو أن تكون قد مرَّت بها دون توقف، وإن كان الافتراض الأول بعيداً عن الاحتمال لأن نظام التسجيل يجعل من الصعب على الأجانب التحايل على الشرطة الأوروبية، والافتراض الثاني غير مرجَّح التحايل على الشريرين لن يجدا مكاناً آخر يكون احتجاز أيضاً لأن هذين الشريرين لن يجدا مكاناً آخر يكون احتجاز أنها في لندن، لكن بما أننا لا نملك حالياً أي وسيلة لنعرف بها مكانها فليس بإمكاننا إلا الانتظار. فلنأكل غداءنا وننتظر بعم قليلاً.

* * *

عجزت الشرطة الرسمية كما عجز هولمز عن حل اللغز، فقد تلاشى الأشخاص الثلاثة الذين نسعى وراءهم وسط ملايين الناس في لندن. جربنا نشر الإعلانات وفشلنا، وتتبعنا أدلة لم توصلنا إلى شيء، وراقبنا الأماكن المشبوهة التي قد يتردد عليها شليسنغر، ولكن بلا جدوى. كما تمت مراقبة شركائه القُدامى، ولكنه لم يقابل أياً منهم.

وفجأة وبعد أسبوع من العجز والترقب المحبط ظهر بصيص من النور، فقد رُهِنت قلادةٌ من الفضة المطعَّمة بالألماس، وهي من الأشغال الإسبانية العتيقة، في مكتب رهونات في شارع وستمنستر. كان الذي رهنها رجلاً ضخماً حليق الوجه له مظهر الكهنة، ومن الواضح أن اسمه وعنوانه كانا زائفين. ومع أن أحداً لم يلحظ أذنه إلا أن الوصف انطبق على الرجل الذي نطارده بالتأكيد.

وقد جاء صديقنا الملتحي من فندق لانغهام ثلاث مرات ليسأل عن الأخبار، وكانت المرة الثالثة بعد ساعة من هذه التطورات. بدا أن جسده يذبل قلقاً، حيث ظهرت ملابسه أوسع على جسده الضخم، وكان يشكو باستمرار قائلاً: لو أنك فقط تُكلفني بشيء أصنعه!

وأخيراً استطاع هولمز تلبية طلبه، قال: لقد بدأ برهن الجواهر، وهكذا سننجح بالقبض عليه.

- ولكن أيعني هذا أن سوءاً أصاب الليدي فرانسيس؟

هز هولمز رأسه بانفعال وقال: لو افترضنا أنهما احتفظا بها سجينة حتى الآن فمن الواضح أن إطلاق سراحها سيكون فيه هلاكهما، وإذن فيجب أن نستعد لأسوأ الاحتمالات.

- ما الذي أستطيع صنعه؟
- هل يعرف هؤلاء الناس شكلك؟
 - لا.

- رائع. من المحتمل أن يذهب عمّا قريب إلى مكتب آخر للرهونات، وفي هذه الحالة سيكون علينا البدء من جديد. لكنه حصل في المكتب الأول على قيمة كبيرة دون أن تُطرَح عليه أية أسئلة، ولذلك فمن المحتمّل أن يعود إليه ثانية لو احتاج إلى أموال نقدية. سأعطيك رسالة للمكتب، وسوف يسمحون لك بالانتظار داخل المتجر، ولو جاء الرجل فعليك أن تتبعه إلى حيث يذهب، ولكن إياك والأفعال الطائشة، والأكثر أهمية من ذلك: إياك والعنف. أستحلفك أن لا تقوم بأي خطوة دون معرفتي وموافقتي.

* * *

لم تصلنا أية أخبار من السيد فليب غرين لمدة يومين، وفي مساء اليوم الثالث اندفع إلى غرفة جلوسنا بوجه شاحب وكل عضلة في جسده القوي ترتجف انفعالاً. صاح قائلاً: لقد وجدته، لقد وجدته.

هدَّأه هولمز ببضع كلمات ودفعه ليجلس في كرسي مريح ثم قال: هيا، قُصَّ علينا الآن الأحداث مرتبة.

- لقد جاءت منذ ساعة فقط، وكانت المرأة هذه المرة، وكانت القلادة التي أحضرتها مشابهة تماماً للأولى. المرأة

طويلة شاحبة ولها عينان ماكرتان.

قال هولمز: إنها هي.

- وقد تعقبتها بعد مغادرتها للمكتب وتبعتها وهي تسير في شارع كننغتون، حتى دخلت لأحد المكاتب يا سيد هولمز. كان مكتب حانوتي.

جفل رفيقي وسأله بذلك الصوت القوي الذي يدل على أن خلف وجهه البارد الكئيب روحاً نارية متّقدة: وبعد؟



Alec Ball (1911)

رسم ألِكْ بول (١٩١١)

- أخذت تتحدث إلى السيدة في المكتب، فدخلت أنا أيضاً وسمعتها تقول: "لقد تأخّرتم"، أو كلمات بهذا المعنى. فأجابت السيدة معتذرة: "كان المفروض أن يصل في وقت أبكر، ولكنه استغرق وقتاً أطول لأنه غير مألوف". ثم توقفتا عن الحديث ونظرتا إلى، فطرحت عليهما سؤالاً تافهاً وغادرت.

- لقد قمت بعمل ممتاز، وماذا حدث بعد ذلك؟

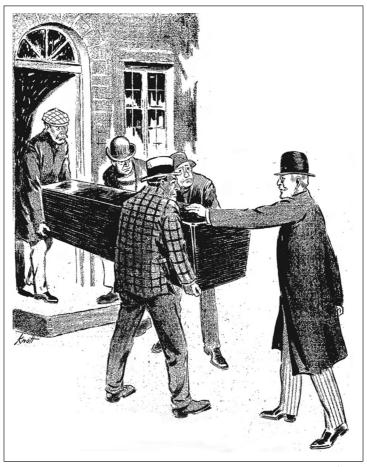
- خرجت المرأة، وكنت قد اختبأت في مدخل أحد المباني. وأظن أن الشكوك راودتها، لأنها راحت تتلفت حولها، ثم استدعت عربة أجرة وركبتها. وقد حالفني الحظ فاستطعت الحصول على عربة أخرى وتبعتها، حتى نزلت أخيراً عند المنزل رقم ٣٦ في ميدان بولتني في بريكستون. وقد طلبت من سائق العربة أن يتجاوز المنزل، ثم أوقفتها عند المنعطف في الميدان وراقبت المنزل.

- وهل رأيت أحداً؟

- كانت النوافذ كلها مظلمة ما عدا واحدة في الطابق السفلي، ولكن الستائر كانت مُسدَلة فلم أستطع رؤية ما في داخل الغرفة. كنت أقف هناك متسائلاً عمّا يجب أن أفعله بعد ذلك عندما وصلت شاحنة مغلقة وفيها رجلان، وقد نزلا وأخذا شيئاً من الشاحنة، ثم حملاه وصعدا به الدرج حتى مدخل الردهة. لقد كان تابوتاً يا سيد هولمز!

-آه، يا إلهي!

- للحظة كنت على وشك الدخول باندفاع، فقد فُتح الباب ليدخل الرجلان ومعهما حملهما. كانت المرأة هي التي فتحته، وقد لمحتني وأنا أقف هناك، وأظنها تعرّفت عليّ لأنها جفلت وأسرعت بإغلاق الباب. ثم تذكرت وعدي لك فجئت إليك على الفور.



رسم نُتْ (۱۹۱۲) Knott

قال هولمز وهو يكتب بعض الكلمات بسرعة على نصف ورقة: لقد قمت بعمل ممتاز، ولكن لا نستطيع أن نقوم بأي إجراء قانوني دون مذكرة، وسوف تساعدنا كثيراً لو قدمت هذه الورقة للسلطات لنحصل على مذكرة. قد تواجهك بعض الصعوبة، ولكن ليستراد سيرتب الأمر.

- ولكنهم قد يقتلونها في هذه الأثناء، فما معنى وجود التابوت؟ ولمَن يكون إن لم يكن لها؟

- سنعمل كل ما يمكن عمله يا سيد غرين ولن نضيع دقيقة واحدة. اترك الأمر لنا، هيا يا واطسون.

بعد أن خرج عميلنا مسرعاً أضاف هولمز قائلاً: سيقوم هو بتحريك القوى الرسمية، أما نحن فلسنا نظاميّين، وكالمعتاد يجب أن نتصرف على طريقتنا الخاصة. أظن أن الموقف خطير لدرجة تبرر أي إجراء متهور، وعلينا أن لا نضيع دقيقة، ولا دقيقة واحدة قبل الوصول إلى ميدان بولتني.

* * *

قال هولمز بينما كانت عربتنا تعبر فوق جسر وستمنستر: دعنا ندرس هذه القضية من جديد. هؤلاء الأشرار عاملوا السيدة المسكينة بلطف حتى أحضروها إلى لندن، بعدما أبعدوا عنها خادمتها المخلصة. ولو أنها كتبت أي خطابات فلا بد أنهم اعترضوا سبيلها، ولا بد أن شريكاً ما قد ساعدهم في الحصول على بيت مفروش. وما إن دخلوا إلى البيت

حتى حبسوها واستولوا على الجواهر التي كانت هدفهم منذ البداية، وقد بدؤوا بالفعل ببيع جزء منها، ولم يظنّوا أن في ذلك خطورة عليهم نظراً لجهلهم بأن ثمّة مَن يهتم بمصير السيدة. ولأنها ستوجه الاتهام إليهم لو أطلقوها فلا مناص من الاستمرار في احتجازها. ولكنهم لا يستطيعون إبقاءها مُحتجَزة إلى الأبد، وإذن فإن قتلها هو الحل الوحيد.

- يبدو هذا واضحاً تماماً.

- والآن سنحلل الأمر بطريقة مختلفة. عندما تدرس سلسلتين منفصلتين من الأحداث يا واطسون ستجد بعض النقاط المتقاطعة التي قد تقربك من الحقيقة. والآن لن نبدأ تحليلنا من جهة السيدة، بل سنبدأ بالتابوت ثم نحلل الأمر منطقياً بشكل معكوس. أخشى أن هذه الواقعة تثبت موت السيدة، وهي تشير أيضاً إلى أنهم سيدفنونها بالطريقة التقليدية، وهذا معناه أنهم حصلوا على شهادة طبية مناسبة وتصريح رسمي بالدفن. ولو أن السيدة قُتلت بشكل واضح لدفنوها في حفرة بالحديقة الخلفية، ولكنهم هنا يقومون بكل الإجراءات بشكل علني نظامي، فما معنى هذا؟ إنه يعني أنهم تسببوا في موتها بطريقة تشبه الموت الطبيعي، وبذلك خدعوا الطبيب. ربما استخدموا السم، ولكن مع ذلك: من الغريب أن يسمحوا لطبيب بالاقتراب منها ما لم يكن شريكاً لهم، وهو أمر يصعب تقبله.

- ألا يمكن أن يكونوا قد زوروا شهادة طبية؟

- سيكون ذلك خطيراً يا واطسون، خطيراً جداً. لا، لا أتخيل أنهم صنعوا ذلك. قف أيها السائق! لابد أن هذا هو مكتب الحانوتي، فقد مررنا للتو بمتجر الرهونات. أرجو أن تدخل أنت يا واطسون لأن مظهرك يوحي بالثقة، واسأل عن الموعد الذي ستُقام فيه جنازة ميدان بولتني غداً.

أجابتني المرأة التي تعمل بالمكتب بلا تردد بأنها ستكون في الثامنة صباحاً. وعندما رجعت إلى العربة قال هولمز: أرأيت يا واطسون؟ ليس في الأمر أسرار، بل إن الأمر يتم بعلانية كاملة! لقد تدبروا -بلا شك- أمر الوثائق القانونية بطريقة ما، وهم يعتقدون أن الأمر ليس فيه ما يثير الريبة. حسناً، ليس أمامنا الآن إلا الهجوم بشكل مباشر. هل أنت مُسلح؟

- عصاى فقط!

- حسناً، حسناً، سنكون بالقوة الكافية، فالقوة إلى جانب من يدافع عن الحق. لا يسعنا أن ننتظر الشرطة ولا أن نلتزم بالقانون حرفياً. والآن يا واطسون، سوف نجازف معاً كما فعلنا في بعض الأحيان في الماضي.

دق هولمز باب المنزل الضخم المظلم في وسط ميدان بولتني، فَفُتح على الفور وظهر خيال امرأة طويلة في ضوء الردهة الخافت. سألتنا السيدة بحدة وهي تحدق إلينا: حسناً، ماذا تريد؟

قال هولمز: أريد التحدث إلى الدكتور شليسنغر.

أجابت: لا أحد يحمل هذا الاسم هنا. ثم حاولت إغلاق الباب، ولكن هولمز وضع قدمه ليمنعها من ذلك وقال بحزم: حسناً، أود رؤية الرجل الذي يعيش هنا أياً كان الاسم الذي يتخذه لنفسه.

ترددت لبرهة، ثم فتحت الباب قائلة: حسناً، تفضلا بالدخول، فزوجي لا يخشى مواجهة أحد.

أغلقت البابَ خلفنا، ثم قادتنا إلى غرفة جلوس تقع على الناحية اليمنى من الردهة، وبعد أن رفعت درجة إضاءة مصباح الغاز قالت قبل أن تتركنا: سيكون السيد بيترز معكما بعد قليل.

كانت كلماتها صحيحة بشكل حرفي، فلم نكد نتلفت حولنا في المكان البالي المغطى بالغبار الذي وجدنا أنفسنا فيه حتى فُتح الباب ودخل إلى الغرفة بهدوء رجل ضخم حليق الوجه أصلع الرأس. كان وجهه أحمر اللون ومظهره الخارجي العام يوحي بالصلاح. قال بصوت مُداهن مخادع: لا بد أن في الأمر خطأ ما أيها السيدان. أتصور أنكما أخطأتما المنزل، ربما لو حاولتما البحث في آخر الشارع...

قال رفيقي بصرامة: يكفي هذا، فليس عندنا وقت لنضيعه. أنت هنري بيترز من أديلايد، وكنت سابقاً الطبيب والقَسّ شليسنغر في بادن وأمريكا الجنوبية. أنا واثق من ذلك ثقتي بأن اسمي هو شيرلوك هولمز.

جفل بيترز (كما سأدعوه بدءاً من الآن) وحدق بشدة إلى

مُطارده المرعب، ثم قال ببرود: أظن أن اسمك لا يخيفني يا سيد هولمز، فعندما يكون ضمير المرء مرتاحاً لا تستطيع إفزاعه. لماذا جئت إلى منزلي؟

- أريد أن أعرف ماذا فعلت بالليدي فرانسيس كارفاكس التي أحضرتها معك من بادن؟

أجاب بيترز ببرود: سأكون سعيداً لو أخبرتني بالمكان الذي يمكن أن أجد فيه الليدي، فهي تدين لي بفاتورة قيمتها مئة جنيه، ولم تعطني مقابلها إلا قلادتين عديمتَي القيمة لم يهتم بشرائهما أحد. لقد تعلقَت بالسيدة بيترز وبي أيضاً في بادن (حيث كنت أستخدم اسماً آخر هناك في ذلك الوقت) ولازمتنا حتى جئنا إلى لندن، وقد دفعتُ فاتورتها في الفندق على وعدٍ منها بأن تسددها في لندن، وما إن صارت هنا حتى هربت منا وتركت لنا تلك القلائد التي عفا عليها الزمن لتسدد دينها. أرجو أن تعثر عليها يا سيد هولمز وسأكون مَديناً لك.

قال شيرلوك هولمز: هذا ما أعتزم فعله. سأفتش أرجاء هذا المنزل حتى أجدها.

- هل معك تصريح بالتفتيش؟

سحب هولمز مسدسه قليلاً من جيبه وقال: سيفي هذا بالغرض حتى يصل ما هو أفضل.

- عجباً، أنت لص!

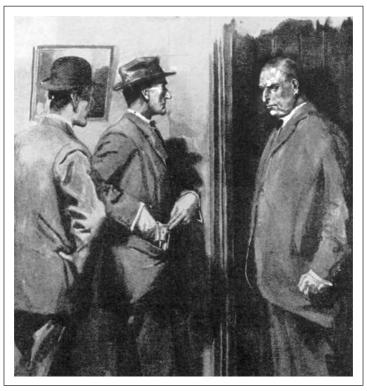
قال هولمز بمرح: يمكنك أن تصفني بذلك، ورفيقي

أيضاً مجرم خطير، وسوف نفتش منزلك معاً.

فتح خصمنا الباب وقال: استدعي الشرطة يا آني.

سمعنا حفيف تنورة نسائية في الممر، ثم فُتح باب الردهة وأُغلق، فقال هولمز: إن وقتنا ضيق يا واطسون، سوف تتأذى يا بيترز بالتأكيد لو حاولت منعنا. أين التابوت الذي أحضروه إلى منزلك؟

- ماذا تريد من التابوت؟ إن فيه جثة.



Alec Ball (1911)

رسم ألِكْ بول (١٩١١)

- يجب أن أرى تلك الجثة.
- لا يمكن أن أوافق على ذلك.
 - سأراها إذن دون موافقتك.

دفع هولمز الرجل جانباً بحركة سريعة ودخل إلى الردهة. كان أمامنا مباشرة باب نصف مفتوح، فدخلناه ووجدنا أنها غرفة للطعام، وعلى الطاولة تحت ثريا مضاءة بنصف قوّتها وُضع التابوت. رفع هولمز شعلة الإضاءة ورفع غطاء التابوت فوجد جسداً نحيلاً يرقد في قاعه العميق، وقد سقط وهج الضوء من الأعلى على الوجه المُسنّ الذابل. لا يمكن بأي حال لتلك الجثة المتهالكة أن تكون للّيدي فرانسيس التي ما تزال تحتفظ بجمالها مهما عوملت بقسوة، حتى لو مرضت أو جُوِّعت لبعض الوقت.

ظهر الذهول على وجه هولمز، والراحة أيضاً. غمغم قائلاً: حمداً لله، إنها لشخص آخر.

قال بيترز الذي كان قد تبعنا إلى الغرفة: لقد أخطأت جداً هذه المرة يا سيد هولمز.

- من تكون هذه السيدة الميتة؟

- حسناً، إن كان من الضروري أن تعرف فهي مربية قديمة لزوجتي اسمها روس سبيندر، وقد وجدناها في دار بركستون للعجزة فأحضرناها إلى هنا، ثم طلبنا لها الطبيب هورسوم وعنوانه ١٣ منازل فيربانك (أرجو أن تُسجل العنوان

يا سيد هولمز) واعتنينا بها جيداً كما يجب على كل متدين تقي أن يفعل. ولكنها ماتت في اليوم الثالث، وسبب الوفاة في الشهادة الطبية هو الشيخوخة. وقد كلفنا مكتب ستيمسون بترتيب إجراءات الجنازة، وسوف يقومون بدفنها في الساعة الثامنة من صباح الغد. هل تجد أي ثغرة في كلامي يا سيد هولمز؟ لقد وقعت في خطأ أحمق ولا بد لك من الاعتراف بذلك صراحة. كنت أتمنى الحصول على صورة لوجهك بذلك صراحة كنت أتمنى الحصول على صورة لوجهك الذاهل عندما فتحت غطاء التابوت متوقعاً أن تجد فيه الليدي فرانسيس كارفاكس لتجد أمامك فقط امرأة عجوزاً مسكينة في التسعين من عمرها.

ظلت ملامح هولمز جامدة كالعادة أمام سخرية خصمه، بينما فضحت قبضتاه المشدودتان انزعاجه الحاد. ثم قال: سأفتش منزلك.

صاح بيترز حين سمعنا صوت امرأة ودقّات أقدام ثقيلة في الممر: هل ستتمكن من ذلك حقاً؟ سنرى سريعاً. من هنا لو سمحت أيها الضابط. لقد اقتحم هذان الرجلان منزلي ولا أستطيع التخلص منهما، أرجو أن تساعدني على طردهما.

وقف ضابط ومعه شرطي في مدخل الباب، وقدم له هولمز بطاقته قائلاً: هذا اسمي وعنواني، وهذا صديقي الدكتور واطسون.

قال الضابط: باركك الله يا سيدي، نحن نعرفك جيداً. ولكنك لا تستطيع البقاء هنا دون تصريح.

- بالطبع لا، أفهم ذلك تماماً.

صاح بيترز: اقبضوا عليه.

قال الضابط بعظمة: نحن نعرف أين نجد هذا السيد المحترم إذا كان مطلوباً... ولكن يجب أن تغادر المنزل يا سيد هولمز.

- نعم، سنضطر إلى المغادرة يا واطسون.

بعد دقيقة كنا في الشارع مرة أخرى، وقد احتفظ هولمز بهدوئه المعتاد بينما شعرت أنا بالغضب والمهانة، وكان الضابط قد تبعنا وقال: أنا آسف يا سيد هولمز، ولكنه القانون.

- تماماً أيها الضابط، لم يكن بوسعك أن تفعل غير ما فعلت.

- أتوقع أن لوجودك هنا سبباً وجيهاً، فهل بإمكاني أن أفعل شيئاً؟

- إنها قضية امرأة مخطوفة يا حضرة الضابط، ونحن نظن أنها في هذا المنزل. والآن نحن بانتظار تصريح التفتيش.

- سأُبقي عيني إذن على الأشخاص الموجودين بالمنزل، وبالطبع سأطلعك لو جَدَّ جديد.

* * *

لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة، وقد انطلقنا في الحال بأقصى سرعة لنتقصّى الأدلة، فذهبنا أولاً إلى مأوى

بركستون للمسنين، وهناك علمنا أن زوجين محبَّين لفعل الخير زارا المأوى منذ عدة أيام وطلبا زيارة سيدة مسنة مصابة بالعته زاعمَين أنها خادمة سابقة عندهما، وأنهما حصلا على إذن ليأخذاها معهما. ولم يشعر أحد بالدهشة عند سماع خبر موتها.

كان الطبيب هو مقصدنا التالي. استُدعي فعلاً ووجد المرأة تُحتضر بسبب الشيخوخة المحضة، وقد رأى المرأة وهي تفارق الحياة بالفعل، فوقع على الشهادة بالشكل المطلوب. قال: أؤكد لكما أن كل شيء كان طبيعياً تماماً، ولم يكن هناك مجال لأي عمل إجرامي في الموضوع. كما أنه لم يرَ ما يُريب في المنزل، إلا أنه استغرب من عدم وجود خدم عند أناس من تلك الطبقة. كان ذلك هو كل ما قاله الطبيب.

وأخيراً ذهبنا إلى مقر الشرطة، حيث وجدنا أن هناك صعوبات في استصدار تصريح التفتيش، وسوف يتأخر الأمر حتماً لتعذر الحصول على توقيع القاضي قبل صباح اليوم التالي، ولو أن هولمز ذهب في التاسعة صباحاً فسوف يتمكن من الذهاب مع ليستراد ليحضر تنفيذ الأمر.

وهكذا انتهى اليوم، باستثناء أن صديقنا الضابط حضر قرب منتصف الليل ليقول إنه رأى الأنوار تضاء هنا وهناك في نوافذ المنزل الضخم المعتم، ولكن أحداً لم يخرج من المنزل أو يدخل إليه. فلم يسعنا إلا التماس الصبر انتظاراً للغد.

كان هولمز منزعجاً جداً بحيث أعرض عن الكلام وكان شديد القلق لينام، فجلس يُدخن غليونه وقد عقد حاجبيه

الكثيفين الداكنين وأخذ يدق بأصابعه الطويلة العصبية على ذراعي كرسيّه وهو يدرس كل حل ممكن لهذا اللغز. وقد سمعت صوته وهو يطوف بأرجاء المنزل عدة مرات خلال الليل، وأخيراً وعقب استيقاظي في الصباح مباشرة اندفع داخلاً إلى غرفتي، وكان ما يزال في ثياب نومه، وإن عرفت من وجهه الشاحب وعينيه الغائرتين أنه لم يَنَمْ طَوال الليل.

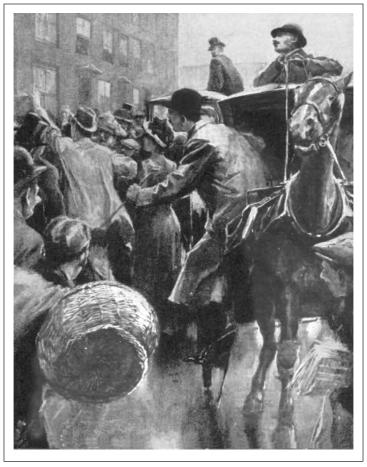
سألني بلهفة: في أي وقت ستُقام الجنازة؟ الثامنة، أليس كذلك؟ حسناً، إنها السابعة وعشرون دقيقة. يا للهول! ما الذي حدث لعقلي؟ أسرع يا رجل، أسرع! إنها مسألة حياة أو موت، وفرصة الموت فيها أكبر من فرصة الحياة مئة مرة. لن أغفر لنفسى أبداً لو وصلنا بعد فوات الأوان.

مرت خمس دقائق قبل أن ننطلق في عربة صغيرة عبر شارع بيكر، ودقت ساعة «بغ بِنْ» الثامنة ونحن نقطع شارع بركستون بسرعة، ولكن الآخرين كانوا متأخرين مثلنا، فبعد عشر دقائق من الوقت المحدد كانت عربة حمل النعوش ما تزال واقفة أمام المنزل، وحين توقفت عربتنا ظهر التابوت يحمله ثلاثة رجال على العتبة.

اندفع هولمز إلى الأمام وقطع عليهم الطريق، صاح وهو يضع يده على صدر أولهم ليصده: أرجعوه، أرجعوه حالاً!

أطلّ بيترز بوجهه الضخم الأحمر من فوق الطرف الأبعد من التابوت وصاح بغضب شديد قائلاً: ماذا تعني بهذا العمل؟ أسألك مرة ثانية: أين تصريح التفتيش؟ - التصريح في الطريق، وسوف يبقى هذا التابوت في المنزل حتى يصل.

كان لصوت هولمز الآمر سطوة على الحمّالين، فأطاعوا أوامره بعد أن اختفى بيترز داخل المنزل. وقد صاح هولمز عندما أعادوا التابوت إلى الطاولة قائلاً: أسرع يا واطسون،



Alec Ball (1911)

رسم ألِكْ بول (١٩١١)

أسرع، ها هو المفك.

ثم قال لأحد الرجال: ها هو واحد آخر لك يا صديقي، وسأعطيك جنيها ذهبياً لو فُتح الغطاء خلال دقيقة! بلا أسئلة، اعمل بسرعة. جيد، وبرغيّ آخر! والآن لنسحبه معاً. إنه يتحرك! آه، أخيراً انتهينا.

تعاونًا جميعاً لرفع غطاء التابوت، وعندما صنعنا ذلك انبعثت من داخله رائحة الكلوروفورم القوية المخدِّرة، وكان في داخله جسد لُفَّ رأسه تماماً بقطن طبي مبلَّل بالمخدر. نزعه هولمز ليكشف عن وجه جميل نقي لامرأة في منتصف العمر، وبسرعة لَفَّ هولمز يده حولها ورفعها إلى وضع الجلوس.

- هل ماتت يا واطسون؟ بالتأكيد لم يَفُت الأوان.



Alec Ball (1911)

رسم ألِكْ بول (١٩١١)

لنصف ساعة بدا وكأننا تأخرنا، بدا أن الليدي فرانسيس قد تجاوزت نقطة اللاعودة بسبب نقص الهواء وبسبب الأبخرة السامة للكلوروفورم. وأخيراً وبعدما أجريت لها تنفساً صناعياً وحقنتها بالأثير، وبعد استخدام كل وسيلة طبية ممكنة، دلّ نبضٌ خافت وارتعاشة خفيفة لجفنيها وتضيّقٌ في عدسة العين على أن الحياة بدأت تدبّ في أوصالها ببطء.

توقفت عربة أجرة، فكشف هولمز ستارة النافذة ونظر إليها، قال: ها هو ليستراد ومعه تصريحه، ولكنه سيجد أن العصفور قد هرب.

ثم أضاف حينما سمعنا صوت خطوات ثقيلة تدب بسرعة في الممر: ها هو شخص يحق له رعاية هذه السيدة أكثر منا. صباح الخير يا سيد غرين، أعتقد أننا كلما أسرعنا في نقل الليدي فرانسيس كلما كان ذلك أفضل، وبعد ذلك يمكن للجنازة أن تبدأ وللعجوز المسكينة التي ما تزال ترقد في ذلك التابوت أن تذهب إلى مكان راحتها الأبدية وحدها.

* * *

قال هولمز في ذلك المساء: هل يهمك أن تضيف هذه القضية إلى سجلاتك يا عزيزي واطسون؟ يمكنك أن تُقدمها كمثال على الضعف الذي يمكن أن يتعرض له حتى أكثر العقول توازناً. هذه الأخطاء عادية لكل البشر، إنما تكمن العظمة في اكتشاف الأخطاء وتصحيحها، وهذا هو الشرف الذي يمكن أن أدعيه.

لقد سيطرَت عليّ طُوال الليل فكرة أن هناك دليلاً في مكان ما، ولا بد أنه مَرَّ أمامي دون أن أنتبه إليه. جملة غريبة أو ملاحظة مثيرة للفضول... وفجأة ومع ضوء الصباح الأول استرجعت الكلمات، كانت ملاحظة زوجة الحانوتي التي وردت على لسان فيليب غرين، قالت: "كان المفروض أن يصل في وقت أبكر، ولكنه استغرق وقتاً أطول لأنه غير مألو ف".

كانت تتحدث عن التابوت. التابوت كان بعيداً عن المألوف، وليس لهذا الكلام معنى إلا أنه صُنع بقياسات خاصة. ولكن لماذا؟ لماذا؟ بعد ذلك بلحظة تذكرت شكل التابوت العميق والجسد الضئيل الضائع في القاع. لماذا يُستخدَم هذا التابوت العميق لذلك الجسد الضئيل؟ لتَرك مكان لجثة أخرى! كانت الاثنتان ستُدفنان بنفس الشهادة الطبية. كل شيء كان في منتهى الوضوح، لولا أن رؤيتي للأمور لم تكن واضحة! كانت الليدي فرانسيس ستُدفن في الساعة الثامنة، وفرصتنا الوحيدة كانت في اعتراض التابوت قبل أن يغادر المنزل. كانت فرصتنا ضعيفة في أن نجدها على قيد الحياة، ولكنها كانت فرصة تستحق المخاطرة كما ظهر من النتيجة.

حسب علمي لم يرتكب هذان الشخصان جريمة قتل قبل الآن، ولا بد أنهما كانا سيترددان قبل ارتكاب عمل من أعمال العنف الشديد. كان بوسعهما دفنها بلا أي دليل على الطريقة التي ماتت بها، وحتى لو استُخرجت جثتها للتشريح كانوا سيبحثون عن تبرير ما.

والآن نستطيع إعادة بناء المشهد بشكل جيد. لقد حجزوا السيدة في الشقة خلال تلك المدة الطويلة، وعندما حان الوقت خدّروها بالكلوروفورم، ثم حملوها إلى التابوت وغمروه بالمزيد ليتأكدوا أنها لن تستيقظ أبداً، ثم ثبتوا الغطاء بالبراغي القوية. إنها طريقة خبيثة ذكية يا واطسون لم أسمع عنها من قبل في سجلات الجريمة، ولو أنهما أفلتا من ليستراد فأتوقع أن أسمع عن بعض الحوادث البارعة في سجل جرائمهما المستقبلية.

